العالم المتصوف الموريتاني الشيخ سعد أبيه:
حياته ودوره في ضفتي نهر السنغال
1265 هـ – 1335 هـ / 1848 – 1917م

د. محمد الأمين أن باريك، جامعة حائل، السعودية.

المقدمة

يعتبر الشيخ سعد أبيه من أشهر الزعامات العلمية والصوفية في منطقة غرب إفريقيا، لما له من إسهام في نشر الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، فقد تصدر طريقة صوفية تعد من أكبر الطرق وأوسعها انتشارا في هذه المنطقة، وهي الطريقة الفاضلية. ولم يقتصر دور هذا المصلح على نشر الطريقة الفاضلية في موريتانيا فحسب بل تجاوزها إلى السنغال وغامبيا وغينيا وغيرها.

لقد عرف التصوف تطورا ملحوظا منذ القرن 18 في موريتانيا خاصة وفي منطقة غرب إفريقيا عامة، على يد مشايخ الطرق الصوفية الشاذلية أولا ثم القادرية بفرعيها البكائي والفاضلي؛ والتيجانية بفرعيها الحافظي والحموي... وهي الطرق التي خلقت مجالا للتلاقي والتلاقح بين مختلف الأعراق والشعوب، وكان لها الأثر الكبير على البنية الثقافية والفكرية لأن مشايخ هذه الطرق والقائمين عليها كانوا في الغالب من أهل العلم الواسع.

لقد كان الشيخ سعد أبيه واحدا من أعظم أبناء منطقة غرب إفريقيا المسلمة أثرا في تاريخها الثقافي والروحي، فقد ظهر كمثال حي على الازدواجية العلمية لمشايخ المنطقة بين علم الظاهر وعلم الباطن، وقصص الخوارق والكرامات التي يتعاطاها طلابه ومريدوه، وهو ما مكنه من القيام بأمور عظيمة بارزة: روحية وسياية واجتماعية على مستوى ضفتي نهر السنغال، فمن هو الشيخ سعد أبيه؟ وما هي الأدوار الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية التي قام بها؟

كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها في هذا البحث من خلال مقدمة ومحورين:

المحور الأول: حياته،

المحور الثاني: دوره في ضفتي نهر السنغال،

ونختم بخاتمة هي خلاصة البحث ونتائجه.

المحور الأول: حياته

وفي هذا المحور نعالج نقاطا بارزة هي:

1– مولده ونسبه: هو الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين الملقب مامينا القلقمي (1848– 1917م)[1]، ولد في منطقة الحوض الشرقي من موريتانيا على بعد 70 كيلومترا غربي مدينة النعمة، ببلدة عين الفتح بمنطقة الرك قرب محمودة، كما أورد في كتابه نبراس المعنى في شرح الغامض من أسماء الله الحسنى "... سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل بن مامين بن الطالب أخيار بن الطالب محمد بن أجيه المختار بن الطالب

[1]– محمد فاضل ولد الحطاب، الفاضلية والشيخ سعد أبيه على ضفتي النهر، مجلة مصادر، كراسات التاريخ الموريتاني، العدد 4، ص 81.

احبيب بن الطالب أعلي بن سيدي محمد بن سيدي يحي ... بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه "، وأمه هي "مريم بنت عبدو بن إيفلج بن أحمد الولي بن عيسى بن أدهس "[1]. وهو جد إدادهس أحد بطون أولاد أبييري.

ولا تقتصر علاقته الأبييرية بهذا النسب من الأم فقط؛ فأخوه غير الشقيق باب بن سيدي ابراهيم من فخذ إدابهم، والذي أصبحت ذريته جزء لا يتجزأ من أهل الشيخ سعد بوه ومن مجتمع النمجاط عامة. بل إن هذه العلاقات تجاوزت الإطار السياسي إلى وضع علاقات مهمة تتمثل في علاقته المميزة مع الشيخ سيدي باب بن الشيخ سيدي الانتشائي.

2 – دراسته ورحلاته: نشأ في كنف أبيه الشيخ محمد فاضل بن مامين الذي أخذ عنه العلوم الظاهرية والباطنية؛ ثم أخذ عن أخيه محمد الزين القرآن وعلومه[2] في سن السابعة من عمره، وأتقن المتون المدرسة في المحظرة الموريتانية، وحصل على الإجازة في روايتي ورش وقالون، ثم انصرف إلى المكتبة التي قضى فيها سنوات لا يخرج منها إلا للضرورة ومنها أخذ الكثير من العلم. هذا وقد ظهرت علامات النبوغ على الشيخ سعد بوه منذ صغره فصار عالما وشاعرا ومؤلفا، وقد أخذ التصوف عن والده الشيخ محمد فاضل بن ماميا (1780–1871) القطب الأعظم والشيخ الأكرم مؤسس الشعبة الفاضلية الشهيرة، وفي هذه البيئة الدينية والصوفية تربى الشيخ سعد أبيه من ما جعله يبلغ في سن مبكرة " **شأو التمشيخ**"[3] على حد قول محمد فاضل ولد الحطاب.

وقد تنقل الشيخ سعد بوه بين مناطق الحوض المختلفة كولاتة وكوش وحدود الحوض مما يلي تكانت، قبل أن يتجه إلى منطقة الجنوب الغربي الموريتاني (القبلة) بأمر من أبيه وذلك لنشر الورد القادري الفاضلي فيها، وبالرغم من كثرة العلماء ومشايخ التصوف فيها إلا أنه استطاع بالرغم من شقة المسافة بينه وبين ذويه, إضافة إلى الزخم العلمي الصوفي في منطقة "الكبلة"، أن ينشر ورده الفاضلي ويجد لنفسه مكانة سامقة في السلم الاجتماعي والديني وحتى السياسي بسرعة كبيرة نسبيا.

وفي هذا السياق يذكر الشيخ سعد أبيه أن كثيرين في منطقة "الكبلة" قد اتهموه بالسحر والكفر وأنكروا عليه كراماته وأفتوا بطرده؛ لذلك أجرى مناظرة مع بعض العلماء بحضور الأمير سيدي ولد محمد الحبيب، وقد جاء ذلك في قوله " أتيت أهل هذه الأرض في زمن إمارة سيد ولد محمد الحبيب؛ فحسدني الزوايا إلا القليل منهم وتسلط علي أهل السلاح من بني حسان وكفاني الله تعالى شر الجميع " [4]. وانتهت هذه المناظرة لصالحه عندما اعترف خصومه بعلمه وفضله وبالتالي قدروه حق قدره. وبعد خمس سنوات في منطقة "الكبلة" توجه الشيخ سعد بوه الى اينشيري وبالتحديد اتويزكت التي بنى بها داره الشهيرة وعاش بها ست عشرة سنة. وفي ذلك يقول :

---

[1] – الشيخ سعد أبيه، نبراس المعنى في شرح الغامض من أسماء الله الحسنى, مكتبة أهل الشيخ سعد أبيه، مخطوط، ورقة 2.

[2] –محمد يصلح ولد الأمانة، حياة الشيخ سعد أبيه ولد الشيخ محمد فاضل ولد مامين، رسالة تخرج، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط ,1988, ص 15

[3] – محمد فاضل ولد الحطاب، المرجع السابق، ص 81.

[4] – الشيخ سعد أبيه، رسالة إلى كماندة، مكتبة أهل الشيخ سعد أبيه، مخطوط، ورقة رقم 3.

بحاسي تيزكت دار اليمن والبركة ***** قد شاء من قدر السكون والحركه
بنيتها ملجأ للمؤمنين ولم ***** تزل منافعها في الدهر مشتركه
فذا تؤمنه وذاك تطعمه ***** وذا تعلمه ما المصطفى سلكه
وهذه نيتي والله يعلمها*****والمرء يجزي بما نوى ولو تركه

وقد اجتمع فيها قرابة 700 تلميذ ما بين طالب علم ومريد تصوف، وفيها بنى مكتبته التي نقل منها عند عودته إلى "الكبلة" 700 كتاب، وظل ينمي هذه المكتبة ويرسل في طلب الكتب من مختلف المناطق كما ساهم هو نفسه بإمدادها بما يقارب خمسين كتابا [1] وفي ذلك يقول الشيخ سعد أبيه نفسه:

أقول إذا نظرت عيني إلى كتبي ****** الحمد لله مولى المجد والرتب خزانة لم تكن موروثة من أب ******
جاءت إلي بلا جد ولا تعب

وقد ظل الشيخ سعد أبيه في أواخر حياته ينتجع بالقرب من بئر النمجاط إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، وقد تخللت فترة إقامته في مختلف هذه المناطق رحلات إلى السنغال[2] وآدرار والتقى فيها مع معظم من عاصره من العلماء والسياسيين.

3– علاقاته ومكانته الاجتماعية: سار الشيخ سعد أبيه على سنة والده وجده الكريم؛ فقد ربطته علاقات مصاهرة ببعض المجموعات القبلية في المنطقة بالإضافة إلى خؤولته من مجموعة إدادهس الأبييرية، وطوال حياة الشيخ تزوج من سبع نساء, وأنجب من الأبناء أحد عشر ولدا ذكرا، توفي أثنان منهم قبل أن يبلغا مبلغ الرجال، ومن البنات سبع عشرة بنتا؛ توفيت منهن خمس وهن صغيرات. وتنقل بين مناطق مختلفة متوخيا المكان المناسب للاتصال بمريديه من مختلف الجهات وخاصة على ضفتي النهر. مما خلق تواصلا فكريا وثقافيا بين الضفتين، والشواهد على ذلك ما تزال حية إلى حد الساعة. وقد احتضنته مدينة النمجاط التي أسسها في حدود 1830 بعد عودته مباشرة من الشمال.

وفي سبيل نشر الإسلام والطريقة القادرية الفاضلية لازم الشيخ سعد أبيه الترحال الدائم إلى السينغال، ووسع فيها المجال الجغرافي لهذه الطريقة كما لم يفعل غيره.

4– مؤلفاته

- الفيض الوهبي على آية الكرسي، (مخطوط)
- تعجيز البرهان في تحريم الشم والدخان، (مخطوط)
- مجمع البحرين فيما يقع بين أثنين، (مخطوط)

[1] الشيخ سعد أبيه، رسائل شيخنا الشيخ سعد أبيه, تحقيق الداه ولد الشيخ سعد أبيه, المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية , نواكشوط ,1986 , ص 18.

[2] وله قصص كثيرة مع حكامها، وبعضها يتسم بالخوارق وذكر الكرامات العديدة له في هذا المجال مما يمكن الاطلاع عليه في مجال "التازبوت" (الانتقام)، حتى إن الفرنسيين كانوا يدركون ذلك تمام الإدراك.

- حاطب ليل وحصن المتضرع من كل بلاء وويل، (مخطوط)
- تشنيف الأسماع بشرف أولاد بني السباع، (مطبوع)
- نور الصراط المستقيم، (مخطوط)
- نبراس المعنى في شرح الغامض من أسماء الله الحسنى، (مخطوط)
- النفع العميم في بركة بسم الله الرحمن الرحيم، (مخطوط)
- الأسنة النافذة في البيعة الحادثة، (مخطوط)
- كشف اللبس عن المسائل الخمس " يشرع فيه مسألة الجهر بالذكر"، (مخطوط)
- مجموع الرسائل والفتاوي التي ترد على مناوئيه في مسألة موقفه من الفرنسيين: الجواب المبين، الجواب المحتوم للمنكر علينا في أمر الروم، والنصيحة العامة في منع محاربة افرانصة.

المحور الثاني: دوره في ضفتي نهر السنغال

ظلت ثنائية الدين والثقافة العربية الإسلامية عبر التاريخ ركيزتين أساسيتين لسكان بلاد شنقيط، لابد منهما لكل من يهمه الترقي في سلم هذا المجتمع، والوصول إلى مقامات العلو والرياسة. ووفق هذا المنطلق ظهر الشيخ سعد أبيه الذي يرتفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى علاقاته الاجتماعية المتميزة في المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد من خؤولة وزيجات متعددة، كلها أمور ساعدته كثيرا في أداء رسالته، وذللت صعابا اعترضته وشكلت حواجز أمامه.

قام الشيخ سعد بوه في منطقة حوض النهر بدور عظيم ثقافيا وروحيا وسياسيا واجتماعيا، ويتجلى ذلك من خلال النقاط التالية:

1- الدور الثقافي والروحي: ويتمثل في:

آ- نشر الإسلام: لقد ساهمت الطرق الصوفية عامة والقادرية خاصة في نشر الإسلام ومقاومة التوسع الأوروبي في المنطقة، وقد كان انتشار الإسلام في مناطق جنوب الصحراء كالسينغال ومالي ونيجيريا وغينيا وغيرهم يعود الجزء الأكبر منه للطرق الصوفية (بالمصحف والسبحة).

وكانت الزوايا التي أنشأها زعماء الطريقة القادرية الفاضلية بمثابة ركائز لنشر الدعوة الإسلامية بين هذه الشعوب؛ فمع عجز المسلمين عن نشر الإسلام بالسيف جاء دور الطرق الصوفية التي استطاعت نشر الإسلام عن طريق التأثير الروحي, وفي هذا السياق يقول الميسيو تائيلي: "إن الإسلام مدين في كل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق هم الذين يديرون حركة الإسلام الحية ولا يخفى ما في عملهم من الخطر على مصالح الأوروبيين"[1].

ب- الإشعاع الثقافي: قامت القادرية بشأن كبير في نشر الثقافة في المنطقة وذلك عن طريق زواياها وأساتذة المحاظر التابعة لها، مع التنبيه إلى أن التصوف في المنطقة امتزج بالعلم وكانت الزوايا الصوفية سندا للمحاظر في

[1] علي بدوي، الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا 1903 -1960، رسالة لنيل الماجستير في الدراسات الإفريقية ، القاهرة . 2003 ص23.

تدريس جميع العلوم. وقد بنى الشيخ سعد أبيه ما يشبه الجامعة من الطين وأكواخ الشجر والخيام للتدريس, وكان الشيخ يستقبل الأطفال بعد أربع سنوات وأربعة أشهر، وكان التعلم عنده على ثلاث مراحل, أولاها: تنتهي بحفظ القرآن وصغار كتب الفقه ومبادئ علم التوحيد والنحو، ويتم في الثانية: تدريس علم اللغة والعروض والسيرة والفقه والتفسير والحساب والفلك والأنساب والتاريخ والمنطق والبيان وعلم طب الأبدان, وفي الثالثة: يقتصر التعليم على التصوف وتهذيب النفس وتربيتها .. وفي هذه المحظرة الجامعة تخرج علماء وأدباء لا يقلون شأنا عن مشايخ التنوير في المشرق العربي، وقفوا مع غيرهم من علماء المنطقة في وجه الغزو الفكري الذي حاول الفرنسيون نشره في المنطقة، حيث استطاعوا تحصين المنطقة ثقافيا مما جعل الفرنسيين عاجزين عن نشر ثقافتهم في المنطقة، وبفضل الله أولا ثم بفضل هذه المحاظر والزوايا كان التأثير الثقافي للفرنسيين ضئيلا .

ج – نشر الطريقة الفاضلية: هي أحد فرعي القادرية في البلاد الموريتانية ومؤسسها هو الشيخ محمد فاضل بن ماميا القلقمي (ت1869م). وقد انتشرت هذه الطريقة انتشارا أفقيا واسعا في البلاد الموريتانية وما حولها، وذلك بفضل المنهج الذي أتبعه مؤسسها الشيخ محمد فاضل بن مامين في توزيع أبنائه في مختلف جهات البلاد، فنشروا القادرية الفاضلية في مناطق سكناهم، غير أن كثرة الطرق الصوفية وعراقتها في منطقة الكبلة، إذا ما قورنت بالفاضلية .. وتعدد مدعي الخوارق يعني أن أي شيخ يسعى إلى الظهور عليه أن يبهر في هذا المجال، وإضافة إلى جهود الشيخ سعد أبيه أخذت شخصيات علمية مرموقة الورد الفاضلي وحملت مشعل الدعوة إليه منها:

- الشيخ المجتبي بن خطري البصادي،
- الشيخ أحمد أبو المعالي التاكاطي،
- الشيخ التراد بن الشيخ العباس،
- الشيخ محمد عبد الله بن أده البصادي[1].

تصدر الشيخ سعد أبيه لنشر الفاضلية في منطقة حوض النهر، وقد سعى بالقدر ذاته من الإصرار على نشرها في المنطقة، ولذلك سعى بنفسه وتنقل في زيارات ورحلات إلى مختلف المناطق وخاصة الضفة اليسرى، حيث استفاد من عوامل عدة نذكر منها:

- نسبه الشريف وامتلاكه لسلاح الخوارق ومعالجة بعض الحالات المرضية المستعصية والإنفاق على المعسرين إضافة إلى إقامة حلقات ذكر علنية[2].
- مؤاخاته لجميع الطرق الصوفية وجعل العلاقة بهم ودية بدلا من التصادم.
- حلق الذكر العلني التي كان لها تأثير شديد على كل من حضرها، حيث أن الكثير من الأفارقة يدخلون الإسلام بمجرد أن يدخلوا حلقة الذكر العلني، فحسب مصادر الساسة الفرنسيين فإن الكثيرين من الذين يحضرون حلقة الذكر يدخلون الإسلام، كما لا حظ الفرنسيون كثرة تسمية الشيخ في أسر الأفارقة تأسيا بالشيخ سعد أبيه[1].

---

[1]– الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987، ص 122.

[2]– محمد فاضل ولد الحطاب، المرجع السابق ، ص 82–83.

وهي أمور اجتذبت الكثير من الأفارقة بشكل واضح فأقبلوا على الشيخ مبايعين بأعداد كبيرة بعد أن يدخل الإسلام العديد منهم مباشرة.

ومع أن المصادر لم تقدم معطيات إحصائية عنها، إذ لا تذكر أعدادا حقيقية لمريدي الشيخ وانتشار الطريقة القادرية الفاضلية بين السينغاليين وغيرهم، إلا أنها في الوقت ذاته تجمع على أنهم كثيرون، وعلى ذلك تدل مراسلاتهم مع الشيخ وأبنائه، وكذلك الجهات التي وجه إليها الشيخ بعض أقاربه، استقر بعضهم إلى الآن في السينغال باعتباره موطنا لهم, ويقدر بول مارتي تلاميذ الشيخ في سان لويس بقرابة 1200 تلميذ سنة 1913م، ويضيف: "**والتكرور السودانيون جميعا يمنحون الورد باسم الشيخ سعد أبيه**"[2]. وإلى قوة تأثير الفاضلية في الضفة اليسرى للنهر تشير وثائق الإدارة الفرنسية التي كانت تطلع على جل المراسلات بين الشيخ وأتباعه وذلك للاحتراز مما قد تحمله من تحريض وغيره[3].

وقد أشرنا إلى الوجود الكبير لتلاميذ الشيخ في منطقة سان لويس لإعتباراتها الخاصة بالنسبة للتاريخ الموريتاني، والمنطقة المحاذية للضفة اليسرى للنهر باعتبارها امتدادا طبيعيا للمجتمع البيضاني بصفة عامة, ولم تقتصر خريطة أتباع الشيخ من الزنوج على هذه المناطق، فكان له أتباع في العمق السينغالي في دكار وغيرها من المدن، وامتدت لتصل إلى غامبيا وغينيا بيساو، وحتى غينيا كوناكري، ويعود اتساع مجال نفوذ الشيخ في منطقة الغرب الإفريقي الزنجية إلى منهجه الذي اتبعه حيث كان يعطي الورد القادري، والورد التيجاني، وهذا يعود إلى أن والده الشيخ محمد فاضل بن مامين قد منحه عمامته وأوراده وسمح له بإعطاء مختلف الأوراد.

وبالقدر ذاته وبفضل العوامل المؤثرة ذاتها أقبل الأتباع والمبايعون على الشيخ سعد أبيه من منطقة الضفة اليمنى للنهر من زنوج وبيضان، وإضافة إلى شهرته الواسعة بين العامة، فقد نال الشيخ مكانة عالية لدى الطبقة العالمة، ومن ذلك احترام "المرابط" محمذن فال ولد متالي (ت 1287 هـ) الكبير له، إضافة إلى مكانته لدى الشيخ سيديا بابا وهو شيخ الفرع الثاني للطريقة القادرية الكنتية في المنطقة وغيرهم من العلماء والمشايخ. ويشير بول مارتي إلى تحول سكان فوتا من التكرور عن القادرية فرع الشيخ سيديا إلى التيجانية مع الحاج عمر، ويقول: "**إن الشيخ سعد أبيه نقل جهوده الدعوية في هذا الاتجاه بشكل ممنهج وعنيد، وحاول تمرير تيجانيته لملء الفراغ الذي تركه أبناء الحاج عمر وحلفاؤه**"[4]، في إشارة إلى دعوة الحاج عمر أهالي فوتا إلى الهجرة عن الأرض الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية.

ومن أتباع الشيخ سعد أبيه في الضفة اليمنى للنهر[5] نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

---

[1]– عبد الله محمد خليل بد، نهر السنغال جسرا لتواصل الشعوب ونموذجا لتعايش الثقافات، رسالة ماستر، جامعة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، السنة الجامعية: 2015–2016، ص 32.

[2]– بول مارتي، دراسات حول الاسلام في موريتانيا (الشيخ سيديا _ الفاضلية _ ادوعلي , ترجمه وقدمه البكاي ولد عبد المالك, ص158.

[3]– عبد الله محمد خليل بد، المرجع السابق، ص32.

[4]– بول مارتي، دراسات حول الإسلام في موريتانيا، المرجع السابق، ص 189.

[5]– المرجع نفسه، ص 190.

- محمدو كان، في انتيكان،
- شيخ مامادو ولد عبد السلام كان، في باكل،
- الشيخ البخاري، في قرية انيرة غرب كيهيدي،
- الشيخ سليمان، ومادي ألفا، وحاميدو كان القاضي، ومقدم القادرية والتجانية، في ماتام،
- الفلان البدو وخاصة الفروع منهم: الفافابي، والدياوابي، والديك، والساندرابي.

ومع ذلك لم تكن الصورة بهذه الوردية دائما، فقد قوبل الشيخ سعد أبيه بالرفض من قبل علماء الظاهر أو بعضهم على الأقل وحاول بعضهم تأليب السلطة الزمنية عليه ممثلة في الإمارة التروزية وإثارتها ضده. وبالرغم من ذلك كانت الحضرة الفاضلية التي أسسها الشيخ سعد أبيه مجالا لتلاقي أهل العلم الباطن والظاهر وجسر تواصل وتلاقح بين سكان ضفتي نهر السينغال، بقي أثر إشعاعه متوهجا إلى الآن، وسار على نهج هذا الشيخ أبناؤه وأحفاده ممن حملوا لواء الخلافة من بعده, وبفضل القادرية الفاضلية وغيرها من الطرق الصوفية التي عبرت الحدود: ذهابا وجيئة توحدت شعوب هذه المنطقة فكريا وحضاريا وروحيا، الأمر الذي كان له بالغ الأثر على مختلف نواحي الحياة.

2- الدور السياسي والاجتماعي للشيخ سعد أبيه:

آ – **الدور الاجتماعي**: لعب الشيخ سعد أبيه أدوارا اجتماعية بارزة تجلت من خلال أمور كثيرة. و قد كان الشيخ من أهل الخير والإنفاق على كثرة طلبته, كما بنى المساجد وحفر الآبار وسعى في مصالحات كثيرة، ما جعله محل احترام وتقدير من أغلب معاصريه خاصة من العلماء وبالتحديد أولاد المرابط ولد متالي، والشيخ سيديا بابا؛ شيخ الفرع الثاني للطريقة القادرية في المنطقة؛ وغيرهم من العلماء والمشايخ. وفي هذا السياق يقول العلامة باب ولد الشيخ سيديا :

حاسديه رويدكم قد تعبتم ****** قصروا عن مداه ياحاسديه

من يكن من بني النبي انتسابا ******واحتسابا فإنه من بنيه

وانتقاص شبيه غير شبيه ****** في العلا كله من غير شبيه[1]

وهذا عبد الرحمن ولد لمرابط ولد متالي يقول ثناء على الشيخ :

لقد فزتم بالفضل عن كل فاضل ***** فما فاتكم غير النبوءة من فضل سلام عليكم ما أضاءت علومكم ***** حنادس ليل المشكلات من النقل وما نال أنا محتم بحماكم ***** وما فاز بالمأمول منكم أخو سؤل

ولم تقتصر الإشادة بالشيخ سعد أبيه على علماء الكبلة فحسب؛ فهذا العالم الحاج السنغالي مالك سي يعبر عن مكانة الشيخ بقوله:

سلام عليكم هاجه الشوق والود ***** وينحط قدرا عنده المسك والورد

[1]- باب بن الشيخ سيديا، فتاوي بشأن دخول النصارى، مكتبة أهل الشيخ سيديا بأبي تلميت، ص6.

جزيتم كفيتم آل بيت رسولنا ***** فمنكم حوى الخيرات والسعد والرشد

فلم تسألوا خيرا بتبليغ نعمة ***** سوى الحب في القربى وبذا اعتلى الجد أيا سعد سعد الدين شمس زمانه ***** فلا زال يروي من مناهلك الورد

ب – علاقاته بالسلطات المحلية والاستعمارية

لعب الشيخ سعد أبيه دورا بارزا في منطقتي الترارزة وجنوب النهر انطلاقا من علاقته بالسلطة المحلية والاستعمار الفرنسي, فبالرغم من أن التصوف كان في البداية زهدا في الدنيا وملذاتها؛ وابتعادا بالنفس عن المغريات الفانية، فإنه عرف تحولا واضحا بعد أن كثر مريدوه ونال المشايخ مكانة اجتماعية ودينية ومالية بفضل هدايا الأتباع، حيث أصبح الكثير منهم يطمح إلى المكانة السياسية التي تناسب مستواه العلمي والاقتصادي والاجتماعي, وقد تميزت بداية القرن العشرين بفوضى سياسية عارمة جعلت السلطة المحلية عاجزة عن أداء واجبها في توفير الأمن, وفي مثل هذه الظرفية لا يمكن للشيخ سعد أبيه إلا أن يكون طرفا في هذه المعادلة الصعبة، خصوصا أن الشك الذي قوبل به في البداية من قبل الإمارة والعلماء النصانيين قد زال وأصبحت الصلات وثيقة بينه والسلطة المحلية، وبينه والزعامات الروحية والعلمية في المنطقة.

وبالإضافة إلى مكانة هذا الشيخ على الضفة اليسرى للنهر وكثرة مريديه هناك، كلها أمور جعلت من الاتصال بالسلطات الفرنسية في السينغال ضرورة تفرضها مصالح تلاميذه على الضفتين بالرغم من عدم اعترافه بالحدود الجغرافية كما يقول ولد الحطاب: **"لم يكن الشيخ سعد أبيه حسب التتبع لفتاويه ومخطوطاته يعترف بالحدود الجغرافية بين ضفتي النهر"**[1].

وقد استغلت فرنسا علاقات إداريها في سانت لويس مع الشيخ سعد أبيه في كل الأمور المتعلقة بالبلاد الموريتانية، فكان وسيطا معتبرا في إنقاذ الرحالة وفي المفاوضات مع الأمراء، من أجل التمهيد للسيطرة الاستعمارية، والدفاع عن الوجود الفرنسي في البلاد لاحقا[2]. هذه الصلات المبكرة والتقرب الفرنسي من الشخصيات الصوفية في المنطقة ومن الشيخ سعد أبيه خصوصا لعلمها بقوة تأثيره على العامة، كلها أمور استفاد منها الشيخ وتلاميذه في سلاسة التنقل والتجوال بين ضفتي النهر بحرية وأريحية، نتجت عنها علاقات مباشرة مع الفرنسيين الذين حاولوا من خلالها إقناع الشيخ أن السيطرة الاستعمارية الفرنسية على دار الإسلام لا تشكل عارضا في وجه إقامة العبادات ولا تدخلا في أمور الدين، بل أكثر من ذلك فهم يوفرون الأمن ويساعدون على إقامة الدين ببناء المساجد والمدارس ونصب القضاة. وقد ضغط الفرنسيون بكل السبل على الشيخ سعد أبيه وعلى الشيخ سيديا بابا بوصفهما أبرز الزعامات الدينية العلمية في المنطقة[3] كما أورد ذلك الشيخ موسى كمرا، ومن ذلك السؤال الذي وجهه كبولاني إلى الشيخ سيديا بابا وثمن الشيخ سعد أبيه رده عليه بأبياته المشهورة، والسؤال هو: **هل ينبغي للمسلمين أن يجاهدوا النصارى بأرض هم بها غير متعرضين لهم في شيء من دينهم بل يساعدونهم**

---

[1] – محمد فاضل ولد الحطاب، المرجع السابق، ص 86.

[2] – بول ماريتي، دراسات حول الإسلام في موريتانيا، المرجع السابق، ص 190.

[3] – الشيخ موسى كمرا، المجموع النفيس سرا وعلانية في ذكر بعض السادات البيضانية والفلانية مخطوط، ص81.

على اتباع الدين بنصب القضاة وما أشبه ذلك مع العلم أن المسلمين لا قوة لهم على الجهاد كأهل الجهة القبلية من أرض المغرب؟؟[1].

وبتوقيع اتفاقية الحماية الفرنسية على البلاد أواخر العام 1903 م من الأمير أحمد سالم ولد أعل (بياده) (1895-1905م). والشيخين سعد أبيه وسيديا بابا، عرف الدور السياسي للقادرية الفاضلية منعطفا حاسما، قوامه الدفاع المستميت عن موقفها المتمثل في القبول بالوجود الفرنسي[2]. وقد بنى الشيخ سعد أبيه ومن سار في ركابه موقفه هذا على ضوابط دينية وعلمية واضحة، فالبلاد تعرف فوضى عارمة ونهب وسفك للدماء في ظل عجز بين لدى الإمارة عن النهوض بواجباتها، والفرنسيون لن يتدخلوا في الشؤون الدينية وسيوفرون الجو المناسب لإقامة الشعائر ونشر الإسلام، ولهذا دبج الشيخ سعد أبيه فتواه الشهيرة والتي يبدو من مقدمتها أنه يوجهها إلى أخيه الشيخ ماء العينين (ت 1328 هـ / 1910م) والمعنونة ب: **"النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة افرانصة"**، وبها قدم كل المسوغات الشرعية والنقلية التي تبيح التعامل مع المخالف في الدين ويمكن تلخيصها في:

- عدم وجود إمام يدعو للجهاد ويحدد غاياته وأهدافه ويسوس البلاد والعباد.
- الهجرة تكلف الناس مالا يطيقون مع تعذر وجود بلاد مسلمة لا تسيطر عليها القوى الاستعمارية.
- البقاء تحت سيطرة الكافر مع ما فيه من مساوئ يعتبر أخف الضررين خاصة أن هذا الكافر لا يتدخل في أمور الدين.

وقد بقي الشيخ سعد أبيه وفيا لذلك الموقف الذي بناه على أساس شرعي عميق وحس سياسي واضح إلى أن توفي رحمة الله في بلدة "النمجاط" الواقعة إلى الجنوب الشرقي من العاصمة أنواكشوط عام 1917م، ليبقى الوجود القادري الفاضلي في منطقة حوض النهر حاضرا ومؤثرا إلى يومنا هذا.

الخاتمة

في بيئة دينية يفوح منها العلم والتصوف ولد الشيخ سعد أبيه ولد الشيخ محمد فاضل القلقمي الذي استطاع في وقت قياسي أن يثبت لأبيه جدارته بتحمل الصعاب ما جعل وجهته من بين إخوته تكون منطقة الجنوب الغربي الموريتاني " الترارزة" التي يصعب الظهور فيها لكثرة علمائها ومشايخها ومدعو الخوارق فيها. ومع ذلك استطاع بعلمه وأخلاقه أن يحقق لنفسه مكانة مهمة على ضفتي حوض نهر السينغال.

شكل الشيخ سعد أبيه بعطائه الثقافي والروحي وأدواره الاجتماعية ومكانته السياسية أهم مرجعية في منطقة حوض نهر السنغال، وذلك انطلاقا من شبكة العلاقات التي بناها سواء مع السلط والنخب الحاكمة أو مع عامة الشعب من طلاب ومريدين.

---

[1]- محمد الأمين ولد سيد أحمد، المرجع السابق، ص 206.

[2]- راجع الشروط الستة التي طلبها الشيخ للقبول بالدخول الفرنسي إلى أرض البيضان. وهي الشروط التي تكفل بها الفرنسيون للشيخ مقابل تفهمه لقصدهم من دخول البلاد، والتي من أهمها عدم جباية الضرائب على الزوايا وعدم التعرض لهم في دينهم وغير ذلك.

وإذا كانت العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية ظلت هي ما يوحد شعوب المنطقة من بيظان وزنوج، فإن العامل الصوفي قد رسخ الروابط الدينية وأضاف إليها روابط اجتماعية كان الشيخ سعد أبيه مثالا حيا عليها، من خلال أسفاره المتكررة إلى السنغال وما جاورها نشرا للإسلام والورد الفاضلي؛ وسعيا منه إلى تهذيب الأنفس وتربيتها.

وقد ساعده علمه ونسبه الشريف وكراماته في جذب الكثير من المريدين والأتباع الذين ينتشرون في مختلف مناطق الوطن (الحوض ولعصابه والبراكنه والترارزة) ومنطقة السينغامبيا من علماء ومريدين ما يزال بعضهم يحمل إلى اليوم مشعل الدعوة إلى الله وعلى اتصال بمشايخهم من أبناء الشيخ وأحفاده في ديمومة تثري المشهد الثقافي والفكري والصوفي كل عام من خلال الرحلات والزيارات المتبادلة بين ضفتي النهر.

وجملة القول أن الشيخ سعد أبيه مثل نموذجا في عصره للعالم الناصح والفقيه المتنور والطرقي القادري المتشبث بالأصول. وقد ظل عطاءه متدفقا إلى أن وافاه الأجل المحتوم سنة 1917م، مما حول قبره في النيمجاط إلى مزار وعنوان شاهد على عظمة الرجل وسخائه المعرفي وارتباطه الروحي والمعرفي بمنطقة غرب إفريقيا عموما وموريتانيا خصوصا.

المصادر والمراجع:

1. ولد الشيخ محمد فاضل الشيخ سعد أبيه, النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة, مكتبة أهل الشيخ سعد أبيه, مخطوط.
2. ولد الشيخ محمد فاضل الشيخ سعد أبيه، نبراس المعنى في شرح الغامض من أسماء الله الحسنى, مكتبة أهل الشيخ سعد أبيه, مخطوط ..
3. ولد الشيخ محمد فاضل الشيخ سعد أبيه رسالة إلى كوماندە , مكتبة أهل الشيخ سعد أبيه, مخطوط.
4. الكنتي الشيخ سيدي المختار، أنساب بني حسان, تعليق سيدى أحمد ولد أحمد سالم، مجلة الوسيط، العدد 5، السنة 1996.
5. ولد سيد أحمد محمد الأمين، السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة, الطبعة الأولى, 2000 ، مطبعة المنار، لكصر، موريتانيا.
6. مارتي بول، من عرب مالي والنيجر كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، مكتبة زيد بن ثابت، دمشق، 1985.
7. مارتي بول، دراسات حول الإسلام في موريتانيا (الشيخ سيديا _الفاضلية _ادوعلي)، ترجمه البكاي ولد عبد المالك .
8. النحوي الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط, المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987.
9. ولد الحطاب محمد فاضل، الفاضلية والشيخ سعد أبيه على ضفتي النهر، مصادر، كراسات التاريخ الموريتاني، العدد4.

10. محمد يصلح ولد الأمانة، حياة الشيخ سعد أبيه ولد الشيخ محمد فاضل ولد مامين، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية ، أنواكشوط ,1988.

11. الشيخ سعد أبيه، رسائل شيخنا الشيخ سعد أبيه، تحقيق الداه ولد الشيخ سعد أبيه، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية , أنواكشوط ,1986 .

12. عبد الله محمد خليل بد، نهر السنغال جسرا لتواصل الشعوب ونموذجا لتعايش الثقافات، رسالة ماستر، جامعة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، السنة الجامعية: 2015-2016.

13. الشيخ موسى كمرا، المجموع النفيس سرا وعلانية في ذكر بعض السادات البيضانية والفلانية، مخطوط.